مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(رومية ١٢: ٦–١٤)

يا إخوةُ إذ لنا مواهبُ مختلفةٌ باختلافِ النعمةِ المُعطاةِ لنا فمَن وُهب النبوَّة فليتنبَّأ بحسبِ النسبةِ إلى الإيمان* ومَن وُهِبَ الخدمةَ فلْيُلازِم الخدمةَ والمعلِّمُ التعليمَ* والواعظُ الوَعظَ والمتصدِّقُ البساطةَ والمدبِّرُ الإجتهادَ والراحِمُ البشاشةَ* ولتكُنِ المحبَّةُ بلا رياءٍ. كونوا ماقتينَ للشرِّ وملتَصقينَ بالخير* محبِّينَ بعضُكم بعضاً حُبًّا أخويًّا. مُبادرينَ بعضُكم بعضاً بالإكرام* غيرَ متكاسلينَ في الإجتهادِ حارّينَ بالروحِ عابدينَ للرب* فرحينَ في الرجاءِ صابرينَ في الضِيقِ مواظبينَ على الصلاة* مؤاسينَ القدّيسينَ في احتياجاتِهم عاكفينَ على ضيافةِ الغُرباءِ* باركوا الذين يضطهدونَكم باركوا ولا تلعنوا.

البار سيسوي الكبير

في ٦ تموز تعيِّد الكنيسة المقدَّسة لأحد كبار نساكها ومعلّمي التوبة في تراثها الروحي، أبينا البار سيسوي الكبير.

وُلد القديس سيسوي في أوائل القرن الرابع في مصر، نسك في براريها زهاء الأربعة عقود، وهناك تتلمذ للقديس أنطونيوس الكبير. دُعي بتائب البرية إثر رؤيا حصلت له قبيل رقاده، فيها سمع الرب يقول «إئتوني بتائب البرّية».

نحن نعرف من تعاليم آبائنا نساك القفار أنهم لم يعتزلوا في تلك البراري الموحشة لمجرد هجر العالم، وإلا لكان هذا هروباً وليس جهاداً في سبيل التقديس. بل أن إيمانهم الوثيق بمقاصد الله ومواعيده كان دافعهم إلى استرجاع حدث خروج شعب الله من أرض العبودية لفرعون إلى حيث لا سيد سوى الله. هذا هو المعنى الرمزي للبرية في روحانية كنيستنا، وهو المعنى المدعو إليه المؤمن طيلة حياته على الأرض. نسّاكنا تركوا غنى الدنيا ومشاغلها وتعزياتها إلى عالم لا شغل فيه إلا جهاد التطهير، ولا غنى فيه إلا السكنى في الله، ولا تعزيات فيه إلا ما كان من عند الله. مسلكهم هذا هو بلا شكّ مسلك ليس لكل الناس، ولا الناس كلّهم مدعوون إلى التوحد في البراري. لكن إذا كانت البرية في معناها الجغرافي مكاناً مقفراً موحشاً، فهي في معناها الروحي حالة ليس فيها ما يشغل الإنسان عن مواجهة أهوائه وترويضها استرجاعاً لصورة الله فيه. إنها المعبر الوحيد إلى الملكوت الموعود، إلى القصد الإلهي الذي يحكيه الكتاب المقدس وتحكيه تعاليم المجاهدين الذين تركوا لنا خبراتهم. الإختلاء إلى الله والإكتفاء به ممكن في كل مكان، وهذا هو التطبيق العملي لعيش البرية في معناه الرمزي.

قلنا إن البرية في الوجدان المسيحي هي استرجاع لحقبة من التاريخ المقدس شهدت تحوّل أمة مستعبَدة إلى شعب الله، وهي في الوجدان الشخصي لكل مؤمن عصيان إرادي على حالة الخطيئة، واستسلام لإرشاد الله وتجليات رحمته وصولاً إلى الملكوت الموعود. الكتاب الإلهي يكشف قصد الله من حاجتنا لعبور هذه الـ«برية». فخالقنا الذي ما انفك يوماً يصنع لنا

العدد ٢٧/٢٠١٠
الأحد ٤ تموز
تذكار أبينا الجليل في القديسين
إندراوس الأورشليمي رئيس أساقفة كريت
اللحن الخامس
إنجيل السَحَر السادس

الإنجيل

(متى ٩: ١–٨)

في ذلك الزمان دخل يسوعُ السفينةَ واجتازَ وجاء إلى مدينته* فإذا بمُخلَّعٍ مُلقًى على سريرٍ قدَّموهُ إليه* فلمَّا رأى يسوعُ إيمانَهم قال للمخلَّعِ ثِقْ يا بُنيَّ مغفورةٌ لك خطاياك* فقال قومٌ من الكتبةِ في أنفسهم هذا يُجَدِّفُ* فعَلِمَ يسوعُ أفكارَهم فقال: لماذا تفكرونَ بالشرِّ في قلوبِكم* ما الأيسرُ أن يُقالَ مغفورةٌ لك خطاياكَ أم أن يُقالَ قُمْ فامشِ* ولكن لكي تعلموا أنَّ ابنَ البشرِ له سلطانٌ على الأرضِ أن يغفِرَ الخطايا. (حينئذٍ قال للمخلَّع) قُمِ احملْ سريرَك واذهبْ إلى بيتك* فقامَ ومضى إلى بيتهِ* فلمَّا نظرَ الجموعُ تعجَّبوا ومجَّدوا اللهَ الذي أعطى الناسَ سلطاناً كهذا.

تأمل

يذكر الرسول بولس الأسباب التي لأجلها يجب أن يحب أحدنا الآخر قائلاً: «محبّين بعضكم بعضاً حبًّا أخوياً» (رو ١٢: ١٠)، وهو يعني بهذا: الخلاص تلو الخلاص، أراد لنا هذا المسلك، وإن كان ليس هو الأسهل، (خر ١٣: ١٧) ليكون لنا هو المرشد الوحيد (١٣: ٢١–٢٢) وهو وحده الأمين. هناك لا يكون لنا غيره إله نعبده. عندئذ، نعقد العهد مع الله الحق وحده ونتلقى منه الشريعة المحيية التي تؤول بالمؤمن إلى عهد النعمة متى صار بالوصايا الإلهية إنساناً جديداً. إسرائيل صار في البرية شعباً جديداً، وريثاً لا عبداً، شعباً خاصاً لله مَحصياً منه (عدد ١: ١–٣). الله يحصي شعبه في سفر العدد وكأننا به يعلن التزامه بالذين صاروا له واحداً واحداً.

بالمفهوم الأرضي المتحكم بالإنسان، هذه الحالة الروحية لا تقارَن بعيش الزمنيات والتمتّع بها. إنه وجه من أوجه مرضنا بعد السقوط. فأعيننا ما عادت تبصر إلا ما كان محسوساً وفورياً. الإنسان في مراحل جهاده يضعف ويقنط، بل ويتذمر على تدبيرات الله التي لا طاقة لنا على فهمها ذهنياً. الإسرائيليون تخلوا عن أمانتهم لله واشتاقوا إلى التنعّم بالأمان والماء واللحم، ولو كانت في ظل العبودية. الإنسان المتصدي لأهوائه قد يشتهي الإستسلام أحياناً، والله يعرف ضعفنا، ولكن في الشدائد يخاطبنا بصوت موسى قائلاً «لا تخافوا، قِفوا وانظروا خلاصَ الربِّ الذي يصنعه لكم اليوم... الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون» (خر ١٤: ١٣–١٤). يعلّمنا القديس مكسيموس المعترف ان الإنسان بعد السقوط بات يخاف من كل ما لا يتسع له عقله، وحياة البرية تخيف الإنسان لأنها لا تخضع إلا لعناية الله وحده. أنت في البرية مستسلم لله بكلّيتك ولا قدرة لك من ذاتك.

صحيح أن الله أراد لنا أن نولد من جديد في هذه البرية الروحية، ولكنه لم يردها لنا إقامة دائمة بل معبراً إلى «أرض جيدة وواسعة، إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً» (خر ٣: ٨). وبالرغم من تخلّي الإنسان عن أمانته يبقى الله أميناً لمقاصده، مشدداً الساقطين بعلامات خلاصه، معلناً مجده بقوة (عدد ٢٠: ١١). تجليات مجد الله تعزي المؤمن في جهاده إذ يرى فيها يقيناً بخلاص المؤمن وغلبته النهائية، مهما اشتد الصراع أو طال. عَيش البرية روحياً هو إذاً فرصة للمؤمن المجاهد للتعمّق في فحص قلبه وتعزيز التمسّك برحمة الله ومقاصده الخلاصية. لكن الإنسان يبقى قابلاً للتراخي من جديد ما إن يستقر روحياً. هنا تكمن خطورة بالغة، إذ تعود الأهواء التي كانت قد طُردت بالجهاد وتحضر معها أهواء أشرَّ منها (لو ١١: ٢٤–٢٦). تفادياً لهذا الخطر الفتاك، لا ينفك المؤمن اليقظ يتذكر صنائع الله له مؤججاً الشوق إلى رحمات ربه على الدوام. ولأن الله لم يرتضِ لنا هذه البرية إلا معبراً إلى الملكوت الموعود، يتغرّب المجاهدون طوعاً عن تعزيات العالم الواهية «إلى أن يُسكب علينا روح من العلاء فتصير البرية بستاناً» (اش ٣٢: ١٥).

بالنسبة للمؤمنين ليست البرية أو الغربة عن نواميس العالم إلا مكان الإستعداد لمجيء المسيح. هذا المجيء يتحقق على المستوى الشخصي في نفس كل مجاهد يستجيب لنداء النبي «الصارخ في البرية» (يو ١: ٢٣) والكارز بالتوبة والغفران. نحن أبناء جرن المعمودية لنا مثال وحيد هو آدم الجديد، المسيح الذي لبس طبيعتنا

أنتم إخوة ولذلك يجب أن تكون لديكم محبة أخوية فيما بينكم. هذا ما قاله موسى أيضاً للعبرانيَيْن اللذين كانا يتخاصمان في مصر: «لماذا تتقاتلان؟ أنتما أخوان؟» (أنظر خر ٢: ١٣). تجدر الملاحظة أنّ الرسول، بينما ينصح المسيحيين بأن يُظهر الواحد تجاه الآخر حناناً ومحبةً أخويين في العلاقة التي تجمعهم، يقول أمراً مختلفاً في علاقة المسيحيين مع الملحدين: «إن كان ممكناً، فحسب طاقتكم سالموا جميع الناس» (رو ١٢: ١٨). إنه يطلب ألا نتخاصم مع غير المؤمنين، وألا نكرههم، وألا نحتقرهم، بينما في حالة إخوتنا المسيحيين يطلب حناناً أكثر ومحبةً أخوية، محبةً صادقة وبلا مراءاة وحارة ومستمرة.

لكن كيف ستكون المحبة مستمرة؟ يُرينا الرسول هذا أيضاً وهو يقول: «مقدّمين بعضكم بعضاً في الكرامة» (رو ١٢: ١٠)؛ بهذه الطريقة تولد المحبة وتستمرّ لأنه بالحقيقة لا توجد وسيلة أفضل لحفظ المحبة من أن نعطي الآخر أولوية التكريم، وهكذا تصبح المحبة حية والتكريم المتبادل عميقاً.

لينقّيها بطهر لاهوته. لقد جدد المسيح في حياته على الأرض معنى الأمانة في العلاقة مع الله إذ بدّل العصيان بالطاعة المطلقة منذ تجسده حتى موت الصليب. بهذه الطاعة واجه المسيح تجارب الشيطان في البرية وبقي، على عكس شعب الله قديماً، أميناً لأبيه، مفضلاً كلمة الله على الخبز، والثقة بالله على المعجزات والآيات الباهرة، والطاعة لأبيه على كل سلطان أرضي... فكانت له الغلبة على المجرِّب (متى ٤: ١–١١). في الحديث عن قيام الملائكة بخدمته إشارة واضحة على استرجاع حياة الفردوس، وهي الحياة التي خُلقَ آدم لها أصلاً.

فهمُ المعنى الرمزي للبرية ضروري لفهم حالة الكنيسة في العالم. فالكنيسة تجاهد في عالم تحكمه سقطة الإنسان المتسلّطة عليه لكي تبثّ فيه طهر سيّدها الفادي، بصبر وأمانة مستمرَّين حتى مجيء الرب يسوع ظافراً في اليوم الأخير (رؤ ١٢: ١٠).

أن ننسى المسيح

«وبعدما أكملوا الأيام بقي عند رجوعهما الصبي يسوع في أورشليم ويوسف وأمه لم يعلما. وإذ ظناهُ بين الرفقة ذهبا مسيرة يوم وكانا يطلبانِه بين الأقرباء والمعارف. ولمّا لم يجداه رجعا إلى أورشليم» (لو ٢: ٤٣–٤٥).

كل والد ووالدة يعرفان جيداً، وربما اختبرا، نوع الفزع الذي حلّ بيوسف ومريم عندما استفقدا «الصبي يسوع» ولم يجداه بين رفقائه الجليليين العائدين إلى قراهم بعد انتهاء الإحتفال بعيد الفصح اليهودي. ظنًّا انه مع الصبيان أترابه. مَن يعرف ماذا حدث له؟ هل هو مريض وقد نسياه في المدينة ولا يوجد مَن يهتم به؟ أم هو ضائع في السامرة أرض الأعداء الذين قد يؤذونه؟ يوسف ومريم، كما كل أهل، لم يعودا يعرفان بماذا يفكران. فالمنطق يتوقف في مثل هذه الحالة والأفكار الشريرة تداهم العقل وتعمّ الفوضى.

لمّا لم يجداه بين الحجّاج، عاد يوسف ومريم إلى أورشليم يبحثان عنه وهما مرتبكين جداً وهو جالسٌ في الهيكل «في وسط المعلمين يسمعهم ويسألهم» (لو ٢: ٤٦). ومثل كل أمٍّ حائرة وغاضبة وحنونة في نفس الوقت، قالت له: «يا بُنيَّ لماذا فعلت بنا هكذا. هوذا أبوك وأنا كنَّا نطلبك معذَّبين» (لو ٢: ٤٨). أما هو فأجاب بهدوء: «لماذا كنتما تطلبانني، ألم تعلما انه ينبغي أن أكون في ما لأبي (في بيت أبي)» (لو ٢: ٤٩).

لنتأمَّل هذه القصة جيداً. ماذا سنفعل لو حَدَثَ الأمر معنا وأضعنا أحد أولادنا؟ ألم يحدث ولو مرَّة واحدة، حين كنّا أطفالاً ان مرّت في ذهننا فكرة أن يُضيِّعنا أهلنا وينسونا في مكان ما؟ كم من مرّة مرّ هذا الكابوس في أحلامنا أثناء النوم وحلِمنا اننا أضعنا أهلنا وسط مكان عام؟ كلنا نقدّر الوضع جيداً. لكن السؤال الأساسي هل سنحتار ونرتبك ونغضب ولا ندري ماذا نفعل إذا نسينا الصبي يسوع ولم ندرِ؟ هل سيغمرنا الحزن والقلق إذا أضعنا يسوع من حياتنا، هذا إذا لاحظنا غيابه؟ أن نخلّف يسوع وراءنا هو كارثة كبيرة تحتاج إلى تأمّل عميق.

إلى جانب التكريم، يلزمنا أيضاً أن نُعير اهتماماً لمشاكل الآخر، لأنّ التكريم مع الاهتمام يخلق المحبة الأكثر حرارة. لا يكفي أن نحبّ بالقلب فقط، بل إنّ التكريم والاهتمام هما ضروريان، وما هو التعبير عن المحبة سوى الاهتمام كما أنه موضوعها أيضاً. هما في الوقت نفسه، يتولّدان من المحبة ويولّدانها أيضاً.

يجب أن نعرف أنّ المحبة ليست أمراً إرادياً بل هي واجب؛ يجب أن تحبّ أخاك لأنه لديك قرابة روحية معه ولأن الواحد منكما هو عضو للآخر، وإن غابت المحبة يأتي الدمار.

عليك أن تحبّ أخاك لسببٍ آخر أيضاً وهو الربح والمنفعة، لأنك بالمحبة تحفظ ناموس الله كلّه، وهكذا الأخ الذي تحبّ يصبح محسناً إليك. «مَن أحبَّ غيره فقد أكمل الناموس. لأنه لا تزن، لا تقتل، لا تسرق، لا تشتهِ وإن كانت وصية أخرى هي مجموعة في هذه الكلمة أن تحبَّ قريبك كنفسك» (رو ١٣: ٩).

القديس يوحنا الذهبي الفم

في نهاية كل قداس إلهي يقول الكاهن: «لنخرج بسلام» بعد أن نكون قد طرحنا عنا «كل اهتمام دنيوي» وعشنا مع الرب يسوع وشاركناه مائدته السماوية. كم هو الوقت الذي يفصل بين «خروجنا بسلام» وبين نسياننا ما اختبرنا في القداس مع يسوع، أو بالأحرى نسياننا يسوع وراءنا؟ كثيرون منا لم يتجاوزوا بعد باحة الكنيسة الخارجية، يبدأون بالتفكير بطعام الغداء وبرامج التلفاز والمواقف السياسية ومواجهة السائقين المتهورين... أي نعود إلى الإهتمامات الدينوية ونحملها على أكتافنا وننغمس فيها وندخل في زواريبها وتفاصيلها، والشيطان يكمن في التفاصيل، وننسى أن «لنخرج بسلام» هي دعوة لنا لنخرج من الكنيسة ولنشهد لمن هم في الخارج بما تذوقناه وعشناه في الداخل: «ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب». ببساطة ننسى يسوع وراءنا لنتلهى بأمور الدنيا. ننسى انه ينبغي أن نكون «في ما لأبي».

كيف يستطيع واحدنا الإبقاء على السلام والفرح والإيمان وكل الأمور التي ملأت ذهنه ونفسه في القداس؟ كيف يحافظ على هذه النِعَم الثمينة من لحظة خروجه من القداس إلى حين دخوله القداس التالي دون أن يشعر انه نسي يسوع وراءه؟ علينا التدرُّب أولاً على ضبط أفكارنا وتحركاتنا. القديس مكسيموس المعترف يشبهنا بالفارس على ظهر جواده. نحن نقود الجواد وليس العكس. لدينا عقل وذاكرة ومخطط إلى أين نتجه. والحصان هو مثل الأهواء التي تريد السيطرة علينا فتحيدنا عن مخطط مسيرتنا إلى مخطط آخر. السؤال هو: مَن القائد أنا أو الحصان؟

لنعرف ما هو طريقنا علينا أن نقرأ العظة على الجبل (متى ٥ و٦ و٧). فهناك وضع لنا الرب يسوع خريطة الطريق إلى الملكوت. ولنتذكر دوماً ان «ليس كل مَن يقول لي يا رب يا رب يدخل ملكوت السموات بل الذي يفعل إرادة أبي الذي في السموات» (متى ٧: ٢١).

من الوسائل الروحية المساعدة على البقاء على الروح العالية فينا هي الصلاة باستمرار. يقول الرسول بولس: «صلّوا بلا انقطاع» (١ تسا ٥: ١٧). البعض يحاول تفسير الأمر بطرق مختلفة، كأن يقولوا مثلاً ان عمل الإنسان أينما كان هو صلاة. الرسول بولس عنى الأمر حرفياً. صلّوا بلا انقطاع. ليس المهم أن نضع المسابح الصوفية في سواعدنا. المهم أن نصلّي بها ليبقى ضميرنا صاحياً دائماً والروح القدس حاضراً في قلبنا على الدوام. عندما طلب منا آباء الكنيسة أن نخاف الله، كانوا يقصدون أن نكون واعين لحضور الله فينا فنخاف أن نخونه بأعمالنا وكلامنا وفكرنا. الترداد الدائم للصلوات التي حفظناها منذ صغرنا يجعل قلبنا مع الوقت يهذ بحضور الله دون أن يتطلّب منا ذلك جهداً كبيراً. لكن الأمر يتطلَّب في البداية جهاداً وتركيزاً، والأهم قراراً حاسماً بأن لا ننسى يسوع.

عندما نتفوَّه بأمور شائنة ونتصرَّف بحماقة مع الغير وأنفسنا، وعندما نغرق في الغضب والحزن والكراهية نطرد أنفسنا من الحضرة الإلهية وننسى يسوع وراءنا.

لنتضرَّع إلى الرب يسوع أن يسكب علينا روحه القدوس ويمنحنا الشجاعة والتواضع للإقرار والوعي بأننا في أحيان كثيرة نتغرَّب عنه، وينير دربنا للعودة إليه.